

الأفعال الكلامية "الإنشائية" في شعر الأمير عبد القادر الجزائري
(مقاربة تداولية)

أ. عيسى بربار جامعة برج بوعريرج

الملخص:

التداولية علم جديد للتواصل الإنساني، يدرس الظواهر اللغوية في الاستعمال، أي درس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه، ومن محاورها الكبرى "الأفعال الكلامية" التي تسمح بدراسة الخطاب الشعري لـ "الأمير عبد القادر" في سياقات ومقامات مختلفة تجعل منه رسالة واضحة وناجحة.

RÉSUMÉ:

La pragmatique est une science pour la communication humaine, elle étudie les phénomènes linguistique. C'est-à-dire la science de l'utilisation linguistique qui prospecte la relation entre l'activité linguistique et leur utilisateur, et parmi ses thèmes les actes de langage qui nous permettent d'étudier le discours poétique d'El Emir Abd El Kader dans des contextes différentes pour le rendre comme un message claire et prospère

تمهيد:

عُرِّفت التداولية بأنها ذلك المجال الذي يركز مقارنته على "الشروط اللازمة لكي تكون الأقوال اللغوية مقبولة وناجحة وملائمة في الموقف التواصلية الذي يتحدث فيه المتكلم. وكانت الأفعال الكلامية أهم محاورها، والفضل يعود إلى فرع "فلسفة اللغة العادية" الذي نشأ بين أحضانه ظاهرة أو نظرية الأفعال الكلامية باعتبارها أنها تبنت مسألة طبيعة اللغة فركزت على المعاني العادية التي تتغير بحسب مقامات الأحوال، ويعدّ العالم اللغوي "أوستين" مؤسس هذه النظرية، التي اكتمل إطارها النظري العام على يد العالم "سيرل" والذي أسبق عليها بعدا تواصلياً محض.

"أوستين" والأفعال الكلامية:

انتقد أوستين اتجاهها فلسفياً كان سائداً آنذاك هو "الوضعية المنطقية" إذ كان يعتبر أصحابه أن اللغة وظيفة واحدة تنحصر في رسم ووصف وقائع العالم

وصفا يكون إما صادقا أو كاذبا، و أطلق "أوستين" على هذا الطرح "المغالطة الوصفية" لان دور اللغة في نظره لا ينحصر في نقل الإخبار ووصف الوقائع وتوصيل المعلومات إلى المتلقي عن طريق علامات صوتية بل إن هناك أفعالا تنجز في الواقع وتبدل قناعات الأفراد واعتقاداتهم بمجرد التلفظ بها، حيث اعتبر هذا الفيلسوف أن "إحداث التلفظ هو انجاز لفعل وإنشاء لحدث¹ .

وبناء على ذلك ميز "أوستين" بين نوعين من الأفعال الكلامية².

الأفعال التقريرية (Acte Constatif): وهي أقوال وأفعال خاضعة لمعيار الصدق والكذب مثل الملفوظ: أكتب الدرس، فهو ملفوظ إما صحيح أو خاطئ، وتحقيق الفعل مستقبل تماما عن تلفظ الجملة، وبالتالي يصبح هذا الملفوظ تقريريا.

الأفعال الإنجازية أو الإنشائية (Acte Performatif): وهي أقوال أو أفعال مرهونة ببعض شروط النجاح التي تحقق الفعل الذي تسميه أي انجاز ما قيل عن طريق التلفظ فاللغة تشمل على أسئلة وعبارات التعجب وأوامر وتعابير خاصة بالوعود والأمنيات والترغيب والتشجيع والترهيب.

لكن "أوستين" أعاد النظر في التقسيم السابق للأفعال الكلامية وذلك لعدم دقة التمييز، ففي بعض الأحيان تعمل الأقوال التقريرية على انجاز فعل الإخبار، وبالتالي فان كل ملفوظ خبري يتضمن فعلا إنجازيا، لأجل هذا استخدم "أوستين" معيارا مختلفا عن معيار الصدق والكذب، فهي إما تكون موفقة (Happy) أو غير موفقة (Unhappy) ووضع شروطا لتحقيق الأقوال الانجازية وقسمها إلى تكوينية وقياسية³.

-الشروط التكوينية:

وجود إجراء عرفي، أن يتضمن الإجراء نطق كلمات محددة ينطق بها أناس معينون في ظروف معينة، أن يكون الناس مؤهلين لتنفيذ هذا الإجراء وأن يكون التنفيذ صحيحا وكاملا.

أن يكون المشارك في الإجراء صادقا في أفكاره، أن يكون المشارك في الإجراء صادقا في مشاعره، أن يكون المشارك صادقا في نواياه وأن يلزم بما يلزم به.

ثم تأتي مرحلة التصنيف العام للأفعال الكلامية وفيها يميز "أوستين" أفعالا ثلاثة ترتبط بالقول وهي على النحو التالي:⁴

فعل القول(فعل التلفظ): أصوات تصدر من متكلم معين ، تشكل تراكيب كلمات في بناء لا يحيد في قواعد اللغة أي ألفاظ تنتمي إلى جمل سليمة نحويا وذات دلالات معينة.

الفعل الصوتي - الفعل التركيبي - الفعل الدلالي

الفعل المتضمن في القول(فعل قوة التلفظ): وهو الذي ينجز أثناء القول ويعتمد على الصيغ الكلامية التي تستدعي غالبا بعض الآثار في المشاعر والأفكار لشخص ما والنية والقصد أو الغرض من إثارة هذه الآثار .

الفعل الناتج عن القول(فعل اثر التلفظ): هو الأثر غير المباشر الذي يتحقق بالقول، أي ما يصاحب فعل القول من اثر لدى المخاطب كالإقناع والتضليل. وبالاعتماد على معيار القوة الإنجازية قدم "أوستين" تصنيفا للأفعال الكلامية من حيث معناها إلى مجموعات وظيفية:⁵

-**الأفعال الدالة على الحكم(الحكميات):** وتتعلق بالقضاء والحكام نحو الإدانة، أو الفهم أو الإصدار أو الوصف...

-**أفعال الممارسة (التنفيذيات):**وهي الأفعال الحاملة لقوة في فرض واقع جديد وتقتضي بمتابعة أعمال الطرد،العزل...

-أفعال الوعد(الوعديات): والأفعال تلزم المتكلم القيام بعمل ما معترف به من قبل المخاطب ومن أمثلتها: الوعد والضمان، والتعاقد والقسم..

-أفعال السلوك(السلوكيات):وهي الأفعال الناتجة من تفاعل مع أفعال الغير كالاعتذار والشكر والترحيب والكره والتحريض.

-أفعال العرض(العرضيات):والأفعال الخاصة بتقديم وجهات النظر وتوصيل الحجة وتوضيح الاستعمالات والدلالات.

سيرل والأفعال الكلامية:

يتفق "سيرل" مع أستاذه "أوستين" في كثير من القضايا الفلسفية واللغوية، فهو يرى أن "كل ملفوظ لساني يعمل كفعل محدد(أمر، سؤال، وعد...) أي يساهم في إنتاج بعض الآثار، كما اعتبر أن المكون الأساسي للملفوظ الذي يمنحه قوته هو القوة الإنجازية، وأنا حين نتلفظ بعبارة ما نقوم بأربعة أفعال:

التلفظ بالكلمات:وهو ما يسميه "الفعل التعبيري".

الفعل القضوي: ويتم ذلك بإسناد الكلمات إلى بعضها وإحالتها على مراجعها.

الفعل الغرضي: وهو الفعل الذي يحدد الطريقة التي تستعمل بها التعبير.

الفعل التأثيري: وهو يجسد النتائج والتأثيرات التي تحدثها الأفعال الإنجازية السابقة على أفكار ومعتقدات المستمع.

ويميز بين ما يسميه الأفعال الكلامية المباشرة والأفعال الكلامية غير المباشرة..:

أ-الأفعال الكلامية المباشرة: وهو أن يتطابق فيه فعل القول بمفهوم "أوستين" وفعل الإنشاء، أي أن تتطابق قوة الفعل الانجازية مراد المتكلم، أو أن يكون

القول مطابق للقصد، أو كما يرى "ستانلي فنش" توافُق بين التراكيب والوظيفة التواصلية في كل جملة (خبر، استفهام، أمر). ويمكن أن نلخص نظرة "سيرل" المتعلقة بالمطابقة في أربعة أفعال متزامنة وهي:⁶

فعل القول، فعل الإسناد، فعل الإنشاء وفعل التأثير.

ب: الأفعال الكلامية غير المباشرة: هي الأفعال التي تتطلب من المستمع/المتلقي الانتقال من المعنى المباشر للقول إلى المعنى الذي يقصده المتكلم، فالقصد مضمر وليس صريح، والوقوف عند حدود القول غير كافٍ لذا على المستمع أن يبذل جهداً في تحليل السياق لفهم قصد المتكلم، فلأفعال الكلامية غير المباشرة تخالف فيها قوتها الانجازية مردا المتكلم.⁷

الأفعال الكلامية الإنشائية:

أولى علماء العرب العبارات الكلامية الصادرة عن الإنسان عناية كبيرة، ف"أبو ناصر الفارابي" (ت: 339هـ) جعلها في صنفين "عبارات القول" و"عبارات الفعل"، وبهذا التقسيم الثنائي يتفق "أبو ناصر" مع الطرح الأوستيني فكلاهما عدّا المخاطبات نوعين:⁸

أقوالاً وأفعالا تتم بالأقوال.

فالأولى إنتاجية فيزيولوجية فيزيائية، تصدر من "المتكلم" على شكل نذبذبات، والثانية يراد بها إضافة إلى ذلك، حمل "السامع" على فعل شيء ما، وفي هذا السياق يصرح "الفارابي" قائلاً: "... والقول الذي يقتضي به شيء ما فهو يقتضي به إما قول ما، وإما فعل شيء ما، والذي يقتضي به فعل شيء ما، فمنه نداء ومنه تضرع، وإذن ومنح، ومنه حث وكف، وأمر ونهي.⁹

ويصنف "السكاكي" "أفعال الكلام" ضمن مباحث علم المعاني، وخاصة عند دراسته للتراكيب المفيدة، ويبدو هذا جلياً عندما قدم تعريفاً لـ "علم المعاني"

فقال: "أنه تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل منها من الإستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليها، عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره.¹⁰

والتراكيب المفيدة في نظره نوعان:

- إِمَّا يَكُونُ خَبْرًا، وَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ طَلِبًا

وما يهَمُّنا في هذا البحث هو النوع الثاني (الأفعال الطلبية).

والواضح أَنَّ "السكاكي" استعمل مصطلح "الطلب" بدل مصطلح "الإنشاء" عند حديثه لخواص تراكيب الكلام، فهو يرى بالإمكان أن نميز في كلام العرب شيئين: الخبر والطلب وقد سمي كل منهما

قانونا. أي إذا أجزاها المتكلم بشروطها وفي سياقاتها الملائمة لها تولد عنها معان أصلية، أمَّا إذا امتنع إجراء هذه الأبواب على أصلها فقد يخرج منها ما يتلاءم مع المقام أي إلى معان غير أصلية.¹¹

وبحكم الاستقراء وضع "السكاكي" خمسة أبواب أصلية للطلب أو "الإنشاء" وهي (الاستفهام والنداء، والنفي، والتمني، والأمر والنهي) وهي أصلية عنده،¹² ولم يكتف "السكاكي" تقسيم الكلام إلى "خبري" و"طلبي"، "إنشائي" بل راح يقسم الإنشاء إلى إنشاء طلبي وإنشاء غير طلبي وفي هذا يقول: "والطلب إذا تأملت نوعان نوع لا يستدعي في مطلوبه إمكان الحصول وقولنا لا يستدعي أن يمكن أهم من قولنا يستدعي أن يمكن، ونوع يستدعي فيه إمكان الحصول".¹³

والواضح مما سبق ذكره أن التقسيم الذي ارتضاه "السكاكي" يتقاطع وينسجم مع ما ذهب إليه "سيرل" (Searl) وهو بصدر تصنيف الأفعال الكلامية، حيث حصرها في أصناف خمسة، ومن بينها الأوامر (Directif) التي يحصل المتكلم من خلالها على شيء من المتلقي مثل: طلب، أمر، سمح... وهو ما يتقارب ويتمثل إلى حد بعيد مع حيثيات الإنشاء الطلبية.

الأفعال الكلامية الإنشائية في شعر الأمير عبد القادر الجزائري.

1. الإستفهام:

يقال: استفهمه، أي سأله أن يفهمه، ويقال: استفهم من فلان عن الأمر، أي طلب أن يكشف عنه¹⁴.

وهو "طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل بإحدى أدواته"¹⁵. يتضح من هذين التعريفين أنّ الاستفهام في معناه العام هو طلب العلم بأمر معين لم يكن في تلك اللحظة مُدركاً لدى الوسائل، ومن بين أدواته: (الهمزة، وهل وما ومتى، وأيان وكيف، وأين وأنى وكم وأي).¹⁶ ورد الاستفهام في ديوان "الأمير عبد القادر الجزائري" على نمطين:

نمط يصل فيه القارئ إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، أي الوصول إلى المعنى الحقيقي للاستفهام (طلب الفهم) والبنى الإفرادية تمثل إلا نفسها وهذا النوع قليل.

ونمط لا يصل فيه القارئ إلى الغرض لدلالة اللفظ وحده، ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم بذلك المعنى دلالة ثانية يصل بها إلى الغرض، وذلك بالتركيز على عناصر السياق المختلفة، وملابسات الحديث، وهذا النوع ورد بكثرة في ديوان "الأمير عبد القادر الجزائري".

ومن شواهد هذا الأسلوب الإنشائي في الديوان قول الشاعر:¹⁷ (الطويل)

يا قُرّة العين! قل لي: كيف بت؟! فقد - والله - بتّ وقلبي في لظى الحزن

فالخطاب موجه من الشاعر "المتكلم" إلى صديقه "الشاذلي" يسأله عن صحته (كيف بت؟)، فسؤال الأمير أفضى إلى إنجاز فعل كلامي يحمل قوة استفهامية، وقد طابق هذا القول (السؤال) القصد بصورة حرفية، بمعنى توافق العلاقة بين التركيب والوظيفة التواصلية، أو تطابق بين معنى الجملة ومعنى القول، وهذا يجعلنا أن ندرج هذا الفعل إلى الكلامي ضمن الأفعال الكلامية المباشرة.

ويكشف السياق وقرائن الأحوال عن دلالات أخرى للاستفهام في شعر الأمير عبد القادر نحو قوله :

أمؤلاي طَالَ الهَجْرَ وانْقَطَعَ الصبر أمؤلاي هَذَا الليل هل بعده فجر؟
يستهل الشاعر قصيدته باستفهام من أجل استدراج "المخاطب"، فهو لا ينتظر من سؤاله إجابة، بل يهيئ نفسية وانتباه المتلقي ومن ثم يقبل عليه بالمدح أو الاستعطاف أو الرجاء. والواضح من خلال هذا البيت أن الاستفهام خرج عن غرضه المحدد، لأنَّ قصد الشاعر ذلك الاستبطاء لا الاستفهام، فمن المعروف أنَّ بعد الليل سوف يأتي الفجر، لكن الشاعر استبطأ هذا الفجر، فاستعمل هذا الغرض للتعبير عن هذا التباطؤ.

ويخرج كذلك الاستفهام عن غرضه الأصلي نحو قول الشاعر: (الطويل)¹⁸
تَضَوِّعَ طَيْبًا كل زهر بنشره فما المسك؟ ما الكافور؟ ما النداء؟ ما العطر؟!
وما حاتم؟ قُلْ لي وما حلم أحنف؟! وما زهد إبراهيم أدهم؟! ما الصبر؟
إن الصيغ الاستفهامية التي وردت في البيتين غايتها استبعاد المشابهة، بين مضمونها وشمائل الشيخ، بالرغم أنَّ الشاعر يدرك عظمة الشمائل المشبهة، فهذه الصيغ أو الأقوال ظاهرها يخالف القصد الذي يسعى الشاعر تبليغه على المتلقي، وبالتالي يمكن أن ندرج الصيغ الاستفهامية (ما المسك، ما الكافور، ما الندى، ما العطر، ما حاتم، ما حلم أحنف، وما زهد إبراهيم، ما صبر) ضمن الأفعال الكلامية غير المباشرة أي أقوالا خالفت فيها قوتها الإنجازية مراد المتكلم.

ويقول كذلك: (الوافر)¹⁹

لنا الفخر العميم بكل عصر ومصر... هل بهذا ما يقال؟
الواضح أنَّ "المتكلم" أو الشاعر في هذا البيت الذي اجتزأناه من قصيدة "بنا افتخر الزمان" والتي مطلعها

"لنا في كل مكرمة مجال ومن فوق السماك لنا رجال"

له فكرة مسبقة عما يسأل عنه أو عن الموضوع المستفهم منه، فأقوال الشاعر قد صدقتها أعماله، وأعمال من سبقوه في الجهاد، ويندرج استفهامه ضمن ما أسماه "سيرل" الشروط المعدّة (Condition Préparatoire).

وفي موضع آخر يقول:²⁰

وعرّ جِيادًا حاد بالنفس كُرْها وقد أشرفت ممّا عراها - على الثّوى
ألا كم جرّت طلقًا بنا تحت غِيْهَبٍ وخاضت بحار الآل من شدّة الجّوى

يستخدم الشاعر كم للإخبار وليس للسؤال، فوظيفة كم الإخبارية جاء ليبين معارك الأمير في الليالي الحالكة والحزن الشديد، كما يمكن أن تكون هذه الأداة إنجازية للسؤال غايتها التهديد.

ومن دلالة أخرى للاستفهام نحو قول الشاعر (البسيط)²¹

لنا المهارى وما للريم سرعتها بها والخيّل لناكل مفتخر
فخيلنا دائما للحرب مسرّجة من استغاث بنا بشره بالظفر
وغنى الملوك فلا تعدل بنا أحد وأي عيش لمن قد بات في خفر؟!

يوجه الشاعر خطابه إلى دعاة الحضر، وفيه يصف المهارى التي فاقت سرعتها سرعة الريم في الصحراء، ثم يمثل نفسه وقومه بالملوك الذين لا يعدل بهم أحدا، فهذه المواصفات تقضي إلى إنجاز فعل كلامي إخباري مؤداه "الحرية والعيش السعيد" وهذا الفعل الكلامي مهّد إلى إنجاز فعل آخر غير مباشر يحمل قوة استفهامية ويفيد الاستخفاف والتحقير، (وأي عيش لمن قد بات في خفر) تنتهي بتقديم الجواب يتركه الشاعر لخصومه أو لقرائه.

ويخرج الاستفهام عن طبيعته الأصلية نحو قوله: (الكامل)²²

أين الرصافة والسدير وشعب بو ان...إذا أنصفتها من دمر؟!*

بعد وصفه لمدينة "دمر" أنتج الشاعر فعلا كلاميا إنجازيا أخذ شكل الاستفهام وقد عمد إلى ضرب مقارنة بين جنات دمر وبين جمال الرصافة والسدير وشعب بوان، وهي من أهم المعالم الراقية التي كثيرا ما تغنى بها الشعر

لجمالها، ولكن أنى لهذه من تلك، فجمال "دمر" وحسنها قد فاق كل شيء فلا مجال للمفاضلة بينها وبين مكان آخر.

الفعل الإنجازي الذي أنتجه الشاعر تم عن طريق سؤال يحمل قيمتين إنجازيتين، القيمة الاستفهامية المتحققة من الشكل والقيمة الإخبارية المتحققة من التضمين.

إن القيمة الإنجازية الأولى والثانية تتولد عنهما قيمة تأثيرية، وهي قيمة تشويقية تأخذ حضورا استفهاميا في ذهن القارئ مفاده لا مجال للمفاضلة بين دمر والرصافة، "السدير" وشعب "بوان".²³

ويخرج كذلك الاستفهام عن طبيعته الأصلية نحو قول الشاعر:²⁴ (الكامل)

يا أهل طيبة! ما لكم لم ترحموا صبا غدا لنوالكم متكففا!

الشاعر صاغ هذا البيت الشعري في شكل استفهام، حيث أنتج فعلا كلاميا إنجازيا إخباريا يتضمن منجاة أهل البقاع مسترحما ومستعطفا ومتوسلا إليهم أن يرحموه من هذا العذاب، فقد لقاها ما ناله من صمود وهجران وبعد، فالشاعر حقق فعلا إنجازيا غير مباشر لأن القصد ليس إلى السؤال الذي هو القوة الإنجازية الحرفية المباشرة لأسلوب الاستفهام وإنما هو التماس العطف والرحمة.

2. الأمر:

وهو ما دلّ على طلب وقوع الفعل بعد زمن المتكلم بغير لام الأمر.²⁵

ويعرفه "السيوطي" فيقول: "هو طلب المخاطب حصول فعل على وجه

الاستعلاء والإلزام".²⁶

وشرط الاستعلاء "شرط تداولي" لأن "الأمر" يتسم بوقوعه من "الأعلى إلى الأدنى" أي أن تعلو سلطة الأمر (المتكلم) على سلطة المأمور (السامع)، فالسلطة تلعب دورا رئيسيا في إنتاج الخطاب التداولي الناجح والمحافظ على قوته الإنجازية فهي - السلطة - في معناها العام "الحق في الأمر فهي تستلزم

أمرًا ومأمورًا وأمرًا وأمرًا له الحق في إصدار أمر إلى المأمور، ومأمور عليه واجب الطاعة للأمر بتنفيذ الأمر الموجه إليه".²⁷

وخرق شرط الاستعلاء كما يرى "السكاكي" يُخرج "الأمر" من معناه الأصلي إلى أغراض ودلالات أخرى وهي كثيرة ومختلفة، ذكرها البلاغيون في مؤلفاتهم فمثلاً:

- إن كان المتكلم أقل مرتبة من المخاطب؛ "إن استعملت على سبيل التضرع كقولنا: اللهم اغفر وارحم ولدت الدعاء".²⁸
فينتج فعلاً كلامياً متمثلاً في الدعاء.

وكذلك "إن استعملت على سبيل التلطف، كقول كل أحد يساويه في المرتبة إفعَل بدون استعلاء، ولدت السؤال والالتماس كيف ما عبرت به".²⁹
ونميز أغراضاً يخرج إليها الأمر مثل: التمني، النصيح والإرشاد والتسوية والتخيير والإهانة والتحقير والإنذار... فهي بمثابة دلالات بلاغية أخرى يمكن للأمر أن يخرج إليها والوصول إليها مرهون بالوقوف على سياقاتها اللفظية والحالية أي أنّ المعاني الضمنية المستفادة من الكلام تتولد بمعونة القرائن والأحوال. ومن هذا من صميم مباحث الدرس التداولي.
ونجد أفعال الأمر حاضرة في مدونة الأمير عبد القادر حيث يقول:³⁰ (الطويل)

أَغْثِ يَا مُغِيثَ الْمُسْتَغِيثِينَ وَالْهَآ
أَلَمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ أَحْبَابِهِ الضَّرْ
خرج فعل الأمر "أغث" عن "معنى الأمر" متحولاً إلى معنى الدعاء، كونه موجه من "الأمير" إلى "شيخه" فـ "المتكلم" أقل مرتبة من المخاطب، وبالتالي ينتج فعلاً كلامياً متمثلاً في الدعاء.

وقوله كذلك: (الطويل)³¹

خُذْ الدُّنْيَا وَالْآخِرَىٰ أَبَاغِيَهُمَا!! مَعَا
وَهَاتِ لَنَا كَأْسًا فَهَذَا لَنَا وَفَرِّ!

هذا الأمر لا يطيقه المأمور، فصيغة الأمر جاءت صريحة "خذ" إلا أنها تفيد الأمر بل يخرج هذا الأخير إلى غرض آخر ألا وهو التعجيز (وهو الغرض المتضمن للقول)، فالمعنى الحرفي للبنية السطحية غير مطابق مع غرض الصيغة أو العبارة التلطفية.

فالأفعال خرجت من معناها الأصلي إلى دلالة أخرى وهي "الالتماس". ويقول في وصف جنات "دمر":³²

عج بي - فديتك - في أباطح دمر ذات الرياض الزاهرات النضر

الفعل "عج" يحمل قوة إنجازية أمرية، مفادها دعوة مفتوحة لزيارة هذه المنطقة وأباطيحها حيث تنتشر الرياض الزاهرة الزاهية.

ويقول الشاعر:³³

أقول لقوم لا تفيد نصيحتي لديهم ولو أبديت كل الأدلة:

ألا! فاتركوا ورد الخدود وشأنه فتخديكم في الخد أقبح فعلة

فالأمر موجه للذين يسيئون بأفعالهم لجمال المرأة ويشوهون خدودها عن طريق الوشم، وهمة يحسبون أنهم يحسنون صنعا، فالفعل "اتركوا" يحمل قوة إنجازية صدرت من الأمير الذي يرى في الجمال سلطانا عظيما ومنزلة كبرى، يدافع عنه بكل ما أوتي من قوة الكلمة.

ويخرج الأمير عن غرضه فيقول الشاعر:³⁴ (البسيط)

واهدم وزلزل وفرق جمع شأنه واجعل فؤادهم بالرعب ملانا

وانصُر وأيد وثبت جيش نصرته أنصار دينك حقا آل عثمانا

لقد اشترط علماء اللغة في جريان الأمر على أصل معناه، أن يكون الأمر أعلى رتبة من المأمور، ولكن في هذين البيتين الشعريين اختل شرط من الشروط المعدة لفعل الأمر وبالتالي عدل عن المعنى الأصلي إلى معنى آخر هو الدعاء، فالشاعر ينزل على أعداء الأمة أقصى وأشد دعوات الهلاك والويل والثبور، فيدعو الله أن يهدم قواعدهم ويزلزل كيانهم، ويفرق شملهم.

3. النهي:

وهو محذو به حذو الأمر في أن أصل الاستعمال (لا تفعل) يكون على سبيل الاستعلاء".³⁵

أمّا من حيث شروطه جريانه على الأصل فهو لا يختلف عن الأمر نحو قول "السكاكي: (...) لا تفعل أن يكون على سبيل الاستعلاء بالشّرط المذكور، فإن صادق ذلك أفاد الوجوب وإلا أفاد طلب الترك فحسب".³⁶

أمّا صيغته هي "لا الجازمة" تدخل على الفعل المضارع، والشّروط المعدّة لإجراء النهي على أصله هي:

- شرط الاستعلاء
- إلزام المخاطب

وخرق أحد الشرطين يخرج النهي إلى أغراض تواصلية يفرضها السياق كالتهديد والدعاء والالتماس، أي ينتج "أفعالا متضمنة في القول". ولم يتعدد النهي في "ديوان الأمير عبد القادر" كثيرا ومن شواهده نحو قوله:³⁷ (الطويل)

وَلَا تَسْأَلَنَّ عَنْ ذِي الْمَشَائِخِ غَيْرَ مِنْ لَهْ خَبْرَةٍ فَاقَتْ وَمَا هُوَ مُعْتَرٍّ

الجملة الطلبية المتضمنة لفعل النهي "لا تسألن" تحمل قوة إنجازية مفادها النهي عن "فعل السؤال" لأنّ الشيخ قد فاق كل الأوصاف وكيف لا وقد وصفه حين قال:

فَقَبِلْتُ مِنْ أَقْدَامِهِ وَبَسَاطِهِ وَقَالَ لَكَ الْبُشْرَى بِذَا قَضَى الْأَمْرَ

للعلم أنّ الحديث عن الأقدام والتقبيل من المجاز الذي يفيد الإجلال والتقدير ، ليس كما ذهب "زكريا صيام" حين قال "تقبيل القدمين والبساط بدعة تُخرج التقدير إلى التقديس"³⁸، فالإشكالية القائمة هي عدم التمييز بين الخطاب الصوفي والخطابات الأخرى.

وفي موضع آخر يقول³⁹: (البسيط)

أنا مُطْلَق لا تطلبوا الدَّهر لي قَيْداً ومالي من حد فلا تَبْغوا لي حداً
ومالي من كيف فيضْبطني لَكُمْ ولا صورة لأغدو منها ولا بداً

الشاعر في مقام يخوله النهي عن السؤال، ويتمثل في بلوغ الشاعر "الحضرة الإلهية" الذي يتحقق من خلال رحلة يقوم بها الصوفي - الشاعر - من الخلق إلى الحق، أو ما يطلق عليها "قمة العروج الصوفي" وبهذا يكون قد حقق شرطين أساسيين اللذين حددهما البلاغيون هما: "الاستعلاء و"إلزام المخاطب"، والجملتان الطليبتان المتضمنتان لفعل النهي تحملان قوة إنجازية مفادها النهي عن السؤال.

ويقول أيضاً:⁴⁰ (البسيط)

لا تَذْمَن بُيُوتاً قَدْ خَفَّ مَحْمَلُهَا وَتَمْدَحَن بُيُوتَ الطَّيْنِ وَالْحَجَرِ!

البيت الشعري مجتزأ من قصيدة "ما في البداوة عيب" قالها الأمير ردّا على سؤال إلى بعض أمراء فرنسا⁴¹، وهو: هل البدو أفضل أم الحضرة؟ وقارئ القصيدة يدرك مباشرة أنّ الشاعر ينتصر للبداوة، وما جاء من وصف دقيق في شعره إنّما يدل على "أنه عاش حياة البادية، فعانق شوقها، وجمالها الفتان، وتغلغل رونق الطبيعة في نفسه فانعكس على شعره فوصف الطبيعة الصحراوية والتحمل والارتحال والمنازل البدوية وصفا يدلّ على أنّ الأمير قد جاب أطراف الصحراء الشاسعة المترامية..."⁴².

والشاعر يوجّه خطابه إلى الآخر، ويطلب منه الكفّ عن "الذّم" موظفا صيغة "لا تَذْمَن" - لا الجازمة + فعل مضارع - وهي فعل كلامي مباشر يحمل قوة إنجازية مفادها النهي.

4. النداء:

هو أسلوب يستخدم في نداء أحد أو دعائه، لكي ينتبه إلى ما يريده المتكلم ويستمع إليه.⁴³

وهو دعوة المخاطب إلى الإقبال بحرف ينوب عن فعل بمعنى: أَدْعُو أو أَقْبَل... وهو على نوعين:

موضوع لنداء قريب (الهمزة وأي) ،وموضوع لنداء بعيد وهو باقي الحروف(يا، هيا، وا ،أي).⁴⁴ ومن شواهد في ديوان الأمير نحو قوله:⁴⁵ (البسيط)

يا عاذرا لا مئى قد هَام في الحَضَر
لا تَظنن بيوتاً قد خَفَّ محلها
وَعاذلا لمحِب البدو والقَفَر
وَتَمُدحن بيوتَ الطَّين والحجر!
لو كُنْتُ تَظنن ما في البدو تعذرني
لكن جَهِلت وكَم في الجَهل منضَرر!

الشاعر يوجّه خطابه إلى الآخر (أمرأء فرنسا) بنداءٍ ليلفت انتباهه ويبثّ فيه الروح الخطابية، ويساعده على تمتين الرابط التواصلّي من خلال مبدأ المشاركة، وعادة يرغب المتكلّم في إشراك السّامع في الخطاب بالزامه أن يكون مخاطبا بتوجيه الكلام له بالنداء. وسياق النص المجتزأ من قصيدة "ما في البداوة عيب" يوحي أن الشاعر استعمل النداء بطريقة مميزة، فالمقام الذي ناد فيه هو العتاب أو اللوم للذي فضّل الحضر واستصغر حياة البدو، والسبب كما يعزوه الشاعر جهل الآخر بحياة البداوة وفضائلها، لذا نجده في البيت الثالث يقدّم له أعذارا لأنّه لا يعرف ما في البداوة من مزايا ومناقب.

ويخرج أسلوب النداء إلى غرض آخر نحو قوله:⁴⁶ (الطويل)

أَمسعود! جاء السّعد والخير واليسر وولّت جيوش النّحس ليس لها ذكر
أشار محقق كتاب "المواقف في الوعظ والإرشاد" الأستاذ " عبد الباقي مفتاح" إلى بعد آخر في المنادى "مسعود" فيقول: "يشير إلى اسم والد شيخه "محمد بن مسعود الفاسي" وينادي بها نفسه ويفرح بالسعادة التي نالها من أستاذه الصوفي.⁴⁷

إنّ المنادى في هذا البيت الشعري هو المنادي نفسه، وبالتالي نلاحظ خرقا وقع في هذا النداء، وكأنّ الشاعر قفز فرحا ومخاطبا نفسه أَمسعود جاء السعد،

فالصيغة "أمسعود" -همزة+اسم- صريحة إلا أن الغرض الضمني أو قوة التلفظ مخالف للفعل التلفظي وبالتالي يمكن الجزم أن هذه الصيغة هي فعل كلامي غير مباشر.

5 التمني:

و"هو طلب ما لا طمع فيه (أي مستحيل)، أو ما فيه عسر (أي ما كان عسر الحصول) فالأول نحو: "ليت الشباب يعود" والثاني "ليت الجاهل عالم".⁴⁸ ولـ"التمني" أداة إنجازية وحيدة هي "ليت" بالإضافة إلى أدوات إنجازية أخرى في مثل (لو)، (هل) قد تفيدان التمني، لا بأصل الوضع، لأن الأولى شرطية والثانية استفهامية فمثال (لو) في التمني قوله تعالى ﴿قُلْ أَنَا لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾⁴⁹، ومثال (هل) فيه قوله سبحانه وتعالى ﴿قَهْلُ لَنَا مِنْ شَفَعَاءِ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾.⁵⁰

ويخرج التمني عن الغرض الأصلي المباشر إلى أغراض تواصلية أخرى ويبين "السكاكي" ذلك في قوله: "إذا قلت لمن يهّمك أمره ليتك تحدثني، امتنع إجراء التمني والحال ما ذكر على أصله فتطلب الحديث من صاحبك غير مطموع في حصول، وولد بقرنية الحال معنى السؤال".⁵¹

وقد ورد أسلوب "التمني" في الديوان نحو قول الشاعر: ⁵²(البسيط)

أودُّ طولَ اللَّيالي إنْ خَلُوتِ بِهِمْ وَقَدْ أَدْبَرْتَ أَبَارِيقَ وَأَفْدَاحِ

وَيَرَوْعُنِي الصُّبْحُ إنْ لَاحَتْ طَلَائِعُهُ يَا لَيْتَهُ! لَمْ يَكُنْ ضَوْءَ وَإِصْبَاحِ

الأصل في التمني أن يكون المتمنى غير متوقع كأن يكون مستحيلا لكن شاعرنا طلب ما كان متوقعا وهو ضوء الإصباح فتحول الأسلوب للدلالة على "التحضيض" لأن الأصل في التمني أن يكون المتمنى غير متوقع كأن يكون مستحيلا أو ممكنا بعيدا، فإذا كان متوقعا مثل ما هو ظاهر في هذا الشاهد فإن التمني قد خرج عن غرضه الأصلي.

ويقول كذلك: ⁵³

أبو حسن وَلَوْ قد رآه أَحِبَّة وَقَالَ له: أَنْتَ الْخَلِيفَةُ يَا بحر!

الشاعر يقصد بأبي الحسن شيخه صاحب الطريقة الشاذلية (أبو الحسن الشاذلي) والتي اتبعها شيخه "محمد الفاسي" وقد استعمل صيغة صريحة (لو) قد رآه صاحبه)، وهي طلب ما لا طمع فيه أي غير متوقع لأنَّ التمني يتعلّق بالمستقبل، وبالتالي لا إمكانية أن يلتقي الشيخان "أبو الحسن" و "محمد الفاسي".

ومن أمنيّاته نحو قوله:⁵⁴ (الطّويل)

فَلَوْ نَظَرَ الْأَمْلاكُ خَتَمَ إِنَائِهَا تَخْلُو عَنْ الْأَمْلاكِ طَمَعًا وَلَا قَهْرَ

يتحدّث الشاعر عن الخمرة الروحية، ويطلب من الأملاك الاهتمام بها، وهذا غير قابل للتحقق، وتوظيفه للأداة "لو" والتي تقيد التمني لا بأصل الوضع قد زاد من استحالة الطلب لأنّها في أصل وضعها امتناع لامتناع.

وحاصل النظر فيما سبق أن الأفعال الكلامية الإنشائية في مدونة "الأمير عبد القادر" تنوعت بين الإنجازية المباشرة والإنجازية غير المباشرة، فالأولى تطابق مُراد قول الشاعر بصورة حرفية تامة؛ أي توافق بين التركيب والوظيفة التواصلية في كل جملة، والثانية خالفت مراد قول الشاعر وكان للسياق دخلا في تحديدها، وذلك باستثمار عناصره الثقافية والاجتماعية والنفسية فكلها ساعدت المتلقي على الوصول إلى الفهم السليم لما تلفظ به.

الهوامش:

1. جون أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة، ترجمة عبد القادر قنيني، الدار البيضاء، إفريقيا الشمالية، 1991، ص: 17

1. عادل الثمري، التداولية ظهورها وتطورها www.eleph.com

2. ينظر: محمود احمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة

الجامعية، مصر، 2002، ص: 44

3. -طالب سيد هشام الطبطباني، نظرية الافعال الكلامية، ص: 100

مجلة الآداب واللغات — العدد 4 جوان 2016

4. -ينظر: عمر بلخير، تحليل الخطاب المسرحي في ضوء النظرية التداولية، منشورات الاختلاف، الطبعة (1)، 2003، ص: 158-159
5. -ينظر : علي محمود حجي الصراف، الأفعال الإنجازية في العربية المعاصرة، ص: 98
6. ينظر :محمود احمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص: 50
7. ينظر: أبو ناصر الفارابي ، كتاب الحروف نقلا من كتاب التداولية عند علماء العرب، ص: 96-97
8. ينظر: المرجع نفسه، ص: 97
9. (السكاكي، مفتاح العلوم، مصطفى الحلبي و أولاده مصر 1991 ص: 247
10. السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 170
11. المصدر نفسه، ص: 151
12. المصدر نفسه، ص: 170
13. ينظر: النحو التعليمي والتطبيق في القرآن الكريم، محمود سليمان ياقوت، كلية الآداب، جامعة الكويت، مكتبة المنار الإسلامية، (ط1) 1996، ص: 1030
14. أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، ضبط وتدقيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية (ط1) بيروت، 1999، ص: 57
15. ينظر: الخفاجي، مراعاة المخاطب في النحو العربي، ص: 251، وأحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، ص: 56 ومحمد أبو موسى، دلالات التركيب، دراسة بلاغية ص: 205،
16. الديوان، ص: 71
17. الديوان، ص: 108
18. المرجع نفسه، ص: 47
19. المصدر نفسه، ص: 52
20. الديوان، ص: 51
21. الديوان، ص: 100
22. *دمر: إحدى أجمل مصايف دمشق بنى الأمير قصرا يصطاف فيه. والرصافة: إما المدينة العراقية أو السورية، وهما معا مدينتان تمتازان بحدائقهما الغناء، السدير: قصر من قصور ملوك المناذرة في العراق، وشعب بوان من غوطات فارس ومن أضخم قصورها في عهد كسرى وهو ما عناه المتنبي: يقول بشعب بوان حصاني أعن هذا

مجلة الآداب واللغات — العدد 4 جوان 2016

- يسار إلى الطعان، ينظر: الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، عبد الرزاق بن سبع، ص: 290 والديوان، ص: 101
23. الديوان، ص: 101
24. المصدر نفسه، ص: 88
25. ينظر : محمود سليمان ياقوت، النحو التعليمي والتطبيق في القرآن الكريم، ص: 484
26. السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ص: 641
27. عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية دار الكتاب الجديدة المتحدة ط2 2204، ص: 221
28. السكاكي، ص: 428
29. ينظر: المصدر نفسه، ص: 429
30. ينظر: عبد العزيز عتيق، علم المعاني، دار النهضة العربية، بيروت 1985م، ص: 37
31. الديوان، ص: 107
32. الديوان، ص: 113
33. الديوان، ص: 100
34. الديوان، ص: 64
35. الديوان، ص: 92
36. السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 320
37. السكاكي ، مفتاح العلوم، ص: 417
38. الديوان، ص: 109
39. عبد الرزاق بن السبع، الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، ص: 390
40. الديوان، ص: 119
41. الديوان، ص: 50
42. عبد الرزاق بن السبع، الأمير عبد القادر الجزائري وأدبه، ص: 50
43. محمد برونه، الوصف في شعر الأمير عبد القادر، مجلة دراسات جزائرية، العدد المزوج 8/7 جامعة أحمد بن بلة، وهران، 2011، ص: 79
44. محمود سليمان ياقوت، النحو التعليمي والتطبيق في القرآن الكريم، ص: 975
45. توفيق الفيل، بلاغة التراكيب، دراسة في علم المعاني، القاهرة، مطبعة العمرانية للأوقفت، (د.ط)، 1991، ص: 213

مجلة الآداب واللغات — العدد 4 جوان 2016

46. الديوان، ص: 50
47. الديوان، ص: 102
48. عبد الباقي مفتاح، الأمير عبد القادر، المواقف في الوعظ والإرشاد، الجزائر، دار الهدى، (ط1)، 2005، ص: 601
49. مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، ص: 583
50. سورة الشعراء، الآية: 102
51. سورة الأعراف، ص: 53
52. ينظر: المرجع السابق، ص: 583
53. الديوان، ص: 116
54. الديوان، ص: 109

